٢

الطموح

كان طريف ينقش القرآن الكريم فى سويداء قلبه ، بعد أن نقشه فى سواد عينيه ؛ وكان ماضى العزيمة ، طموحا ، سعيداً بحياته ، سعيداً برفاقه وكتّابه .

غير أن الحياة فى أجمل مظاهرها ، والسعادة فى أبهج ألوانها ، لا تخلصان من غصص . ولا سيما فى مجتمع روحه المادة ، وشعاره الكسب ، والإدخار ، فما أن استوعب طريف جزئين من المصحف الشريف ، وبدأ يستظهر الجزء الثالث حتى أكرهه الشيخ على أن يرافق فى الحفظ تربا له كفيفا ، مرفها يدعى رشيدا ، طمعا فى صلات أسرته ، وهداياها ، فعقل هذا الترب بغباوته وسرعة نسيانه تباهة طريف ، وسرعة حفظه ، وعاق طموحه ؛ فضاقت به الحياة ، ويئس من الكتاب ؛ حتى نهض مرة ليغادره فضربه الشيخ بحذائه الغليظ فى ظهره ضربة ردته إلى مكانه .

ولـكن الشر مهما تفـاقم واستطار ، فلا بد أن يحمل الخير بين أردانه ، كالخير مهما سخا ، واتسع ، يحمل الشر فى مفاتن حليّه ، فقد كان من عادة الشيخ أن يتقاضى من كل تلميذ بيضة فى الأسبوع ، وحدث ذات يوم أن استعصت البيضة على دجاجات أسرة رشيد فجاء الشيخ لا يحمل كالعادة فى يده البيضة المنتظرة ، فغضب الشيخ ، وغضبت أسرة رشيد ، فـكان جدال ، وكان سباب ، ففراق ، لا جشعا من الشيخ ، ولا شحا من أسرة رشيد ، ولـكن عناداً من الطرفين بل انقاذا لطريف من ذلك القيـــد الذى طالما استنجد الانسان لفـكه فلم يفعل ، وفـكته بيضة دجاجة .

سر طريف ، بل طرب لهذا التحرر يعيد اليه انطلاقه ، وعاد يلتهم المصحف الشريف حفظاً ، الى أن قدم القرية وفد من علماء المدينة ، ووجوهها لمعونتها فى انشاء مسجد اعتزمت بناءه ، فأعجبوا بطريف ، ورغبوا فى أن يؤم مدرستهم الخيرية التى كانت تعد طلابها ليكونوا رسـل نهضة ، وتقى ، فى

قومهم . وتزودهم الى جانب الدين واللغة بأحدث العلوم ، فكان لهم ما أرادوا ، وله ما تمنى ، وكان للغيرة فى أهلى ان تدفعني الى أن أتبعه .

ان أول درس حضرناه فى تلك المدرسة شذرة فى الاملاء نصها عليناه المدير ثم أمر تعييناً كان الى جانب طريف بأن يتلوها فتوقف فى القراءة غير مرة واقترف ما لا يعد من الأخطاء . فما كان من طريف . وهو القروى الساذج ، الا أن وقف فجأة وانبرى يتلو الشذرة كلمة فكلمة غير متلكىء ولا متلعثم ، كأنما كان يعيها من عهد بعيد . فدهش المدير ودهش التلاميذ جميعاً من بادرة طريف ووعي حافظته . ولكن الدهشة زادت حين كان طريف الأول فى نهاية السنة المدرسية فى جميع المواد خلا الرياضيات . فغمرته اللجان الفاحصة بالتهانى ، والجوائز ، وعينت له الجمعية على غرار المجلين من التلاميذ ، مرتباً خفف ما كان يعانى منذ وفاة أمه من ألم الفقر والحرمان .

وبدهى أن يثير تفوقه شيئاً من الامتعاض فى نفسى ،

الى جانب ما أثار من دهشة ، وان يهيب بى الى الانتقاص من أهمية هذا التفوق ، كيف لا ! وأنا الذى كنت أذلل دروسه ، وأتلوها عليه .

بيد أنى ترددت مخافة أن أؤذيه فى عواطفه ، ولكن الأثرة تغلبت على كل شعور فى نفسى ، فما تمالكت ان قلت له ونحن فى القطار الى قضاء العطلة فى القرية :

— لا يستريب أحد يا طريف ، فى أن العمى يحول قوة الأبصار من العينين إلى الدماغ ، ويضاعف بالتالي الذكاء ، وفضلا عن ذلك فانه يعزل من أصيب به عما يكتنفه من أشياء ، ويتيح لمشاعره الانقطاع إلى هدفه . أما المبصر فيستهلك ما لديه من قوة الابصار ، بالنظر ، وعيناه لا تكادان تستقران على شىء لكثرة ما يقع تحت شعاعهما من مرئيات فأنت لم تحرز ما أحرزت من تفوق ، الا بفضل عاهتك .

فقهقه طريف ملء شدقيه وقال مستخفاً :

— لشد ما يضحكنى رأيك ياصديقى ، وان جرح كبريائى ، ومحى مجد طفولتى المبصرة ، ولكنه يسوءنى

أيضاً ، لأنه آية على أن منهاجك فى البحث ، ما زال كمجاهل البيد ، لا يستوى فيها السبيل ، وسر ذلك ، انك لا تنظر الى ما فى أفق المعقولات بشعاع عقلك ، كما تنظر الى ما فى أفق المرئيات بشعاع عينيك ، وانما تنظر اليها بعينى هواك ، وخيالك ، فتعمى عن حقائقها ، وقد تعنى سواك .

لقد عرفت أن من العمى من نبغ وتفوق ، فتبادر إلى ذهنك أن العمى سر التفوق والذكاء ، ولما كنت معتاداً تعليل معتقدك ، فقد اعتقدت انقطاع الأعمى الى غايته ، واستحالة قوة الابصار لديه ذكاء ، فأضفت إلى وهمك الأول ، وهما آخر يزيده تعقيداً ، ولو أنك فتحت عينيك وأجلت فكرك فى الواقع ، وحقائق الأشياء ، لما احتجت إلى حشو دماغك بالأوهام ، بل لرأيت أن من المبصرين من نبغ ، وتفوق ، وقلت إن الابصار كالعمى منشأ التفوق ، والذكاء ، وحينئذ يتساوى فى نظرك هذان العاملان من حيث أثرهما فى مضاعفة الذكاء ، أو إضعافه . فلا تجود على أحدهما بما ليس فيه . فالعين كالأذن ، أو دونها ، وسيلة من وسائل

الاتصال بالعالم الخارجى ، وقوة الابصار لم تمنح لهـا الا لتأدية هذه المهمة. فاذا بطل عملها ونابت عنها فى وظائفها وسائل أخرى ، كان من البداهة أن يتحول ما فيها من قوة الى تلك الوسائل ، وليس الى الدماغ . فقوة الابصـــار لا تستحيل ذكاء كما تزعم بل لمسا وسمعا كما أعلم .

واذا كان ما يبلغ أذنى الأعمى من أصوات خارجية ، لا يعدل ما يقع تحت سمع المبصر ، وبصره من مسموعات ومرئيات ، فان مايضطرب فى عالمه النفسى الداخلى من خواطر وأحلام ، يقوى ما يضطرب في عالم المبصر ، ذلك بانه أبدا هائم ساهم ، لا يكاد انتباهه يستقر على خاطر من الخواطر أو فـكرة من الأفـكار ، فهو لهذا كالمبصر ، أو أكثر منه عرضة لشرود الفكر ، وزوغان الانتباه .

ولـكن ، مالى أحاجك بما لا يقع تحت حسك ، ولا يبلغه اختبارك . ألم تبصر بعينيك ، وتسمع بأذنيك ، وتلمس بيديك ، عمياً ليسوا على شىء من الفطنة والنباهة ؟ ألا تذكر رفيقنا رشيداً ذلك الرفيق المسكين ، الذى لم

يكن يستوعب درسه ، الا بجهد جهيد، ولا يستظهر سورة حتى ينسى السورة التى سبقتها الى حافظته ، مما جعل الشيخ يحمله بين الفينة والفينة على الاعادة ، ويحملنى على تحفيظه ما نسى .

بلى أنت تعرف كثيراً من العمى الخامنين ، وتذكر غباوة رشيد ، ولكن بربك قل لى أين عقلك ؟ بل أين ادراكك ؟ لتكذب ما رأت عيناك ، وسمعت أذناك ، ولمست يداك ، بما حاكت مخيلتك من أوهام ؟ أغبى أنت ؟ أم أنت من أولئك المبصرين الذين تعودوا مكابرين أن ينسبوا الى عاهتى العجائب ، حين أفوقهم ، والعجز ، حين أنافسهم . إن كنت الأول فما أجهلك من متفلسف ، وان كنت الثانى فما أظلم نفسك وأزرى مقصدك ، وسواء أكنت هذا ، أم ذاك ، فلن أكون غرضاً لبحثك ، وطفولتي المبصرة المتفوقة لما تغرب عنك . فلا مبرر إلى تعليلك ما أصبت من نجاح بنازلة هى أحرى بأن تضوى نها الألمعية ، وأؤكد لك ، أن تفوق مبصراً ، وكفيفاً ،

لم يكن قط نتيجة ما ينسب الى من ذكاء ، بل هو نتيجة طموح ، ورغبة فى التفوق على الأقران ، فما أذكر أنى فكرت فى أمر من الأمور الا أردت أن أكون الأول فيه فاخيب الله رجائى .

كان القطار كالعاصف الهبوب يطوى الأرض طياً ساعة كان ظريف يفيض فى حديثه فما قطعنا عن الحديث غير صوت القاطرة تعلن وصولنا المحطة .